ثغر العريش في العصر الوسيط
(٢٠/٩٢٣هـ - ٦٤١/ ١٥١٧م)
دراسة في الجغرافية التاريخية

د. عبد الغنـــى عبد العزيز زيادة
أستاذ الجغرافية التاريخية المساعد

مقدمة:

لم تكن مصر – منذ أقدم عهدها بالمدينة المستقرة – لتترك بابها الشرقي دون حارس، ولا تخلوا سجلات الفراعنة من ذكر الحملات التأديبية المتكررة علـــى بدو سيناء. ورغم أن المصرى القديم لم يستقر فى سيناء، إلا أنه احتفظ بنقـــاط دفاعية مهمة على الحدود بالقرب من رفح.

جدير بالذكر أنه عندما فتح المسلمون مصر تزايد الاهتمام بالساحل الـــشمالى لسيناء بصفة خاصة؛ لأهميته الحربية، بالإضافة إلى معـــرفتهم عـــن محطـــات

الطريق التى كانت بمثابة محطات للبريد[١] والراحة.

موضوع الدراسة:

يتناول هذا البحث بالدراسة ثغر[٢] العريش فى العصر الوسيط[٣] على الساحل الشمالى لشبه جزيرة سيناء، فالأخطار التى تعرضت لها مصر من الشرق أو الغرب أو الجنوب قليلة جدًا، وهذا ينعكس أيضًا على حدودنا السياسية الحالية، فمن ناحية الصحراء الشرقية لا يكاد التاريخ يسجل حملة حربية دخلت أو خرجت منها عبر هذا الحاجز، بينما الصحراء الغربية-حيث بحر الرمال العظيم- لم تخترق قط عسكريًا حتى الآن.

هذا بالإضافة إلى أن حدودنا الجنوبية والغربية كانت تتاخم بلادًا فقيرة الموارد محدودة الأعداد والقوة وبالتالي محدودة الخطر.

وعلى النقيض من هذا تمامًا كانت الحدود الشمالية، ففيها تركز كل الخطر، ومنها تعرضت مصر لأغلب الغزوات سواء برًا أو بحرًا وذلك؛ لأنها ليست فقط

---

(١) بريد: يذكر القلقشندى عن أبى السعادات بن الأثير فى كتابه "النهاية فى غريب الحديث" أنها كلمة فارسية معربة، وأصلها بالفارسية بريده دم، ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلا فى البريد قصوا ذنبه ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد. وقد ذكر القلقشندى أيضا أنها عربية. انظر: القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ١٤، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤١٢.

(٢) الثغر: هو الموضع يخاف هجوم العدو منه، ومنه سميت المدينة على شاطئ البحر ثغرًا والجمع ثغور. انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٣، ج١، القاهرة، د/ت، ص ١٠١. وعلى ذلك فالثغر هو كل موضع قريب من أرض العدو وكأنه مأخوذ من الثغرة وهى كل فرجة فى جبل أو طريق انظر ياقوت الحموى: المشترك وضعا والمفترق صقعا، نشر فرديناند وستنفليد، ١٨٤٦، ص ٨٧.

(٣) العصر الوسيط: مصطلح فى التاريخ الإسلامي يقابل من الناحية الزمنية مصطلح العصور الوسطى فى أوربا، وذلك تجنبًا لدلالة العصور الوسطى كعصور مظلمة فى الغرب ويقابلها فى الشرق العربى الإسلامى عصور ازدهار وتقدم حضارى.

معرضة بصورة مباشرة للبحر بلا عمق أو عازل مهم ولكن أيضًا لأن مراكز القوى والإمبراطوريات والأطماع التقليدية فى العالم القديم كانت فى الشمال، لكل ما سبق كانت الثغور الساحلية شمال سيناء وعلى رأسها ثغر العريش من الأهمية بمكان، وذلك لضمان الحماية البحرية لحدود مصر الشمالية.

لهذا يتناول البحث ثغر العريش على الساحل الشمالى لسيناء منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى (٢٠/٩٢٣هـ - ٦٤١/ ١٥١٧م) فى إطار إعادة بناء الصورة الجغرافية التى كانت سائدة فى هذه الفترة الزمنية.

وفى سبيل ذلك يعرض البحث لدراسة ثغر العريش من حيث الموقع والموضع، نشأة المدينة ومبررات وجودها، النمو العمراني لثغر العريش في العصر الوسيط، ثم يعرض لوظائفه الحربية، التجارية.

أسباب اختيار الموضوع:

كانت هناك عدة اعتبارات وراء اختيار الباحث لموضوع الدراسة نجمل منها الآتى:

١- استكمالاً لرغبة الطالب فى دراسة المناطق خارج المعمور المصرى التقليدى فى الوادى والدلتا - بعد دراسة واحة سيوة وموانئ خليج السويس- فكانت منطقة العريش من بين المناطق التى جذبت الباحث فحرص على دراستها، ولم لا وهى مدخل مصر الرئيس عبر التاريخ؟

٢- الأهمية السياسية لمنطقة الدراسة خلال العصر العربى (العصر الوسيط) بل على مر العصور على أساس كونها بوابة مصر الشمالية الشرقية.

البعد الزمنى:

الفترة الزمنية التى تم اختيارها للدراسة هى فترة العصر العربى والتى تبدأ

مع الفتح الإسلامى العربى لمصر ٢٠هـ/ ٦٤١م حتى الفتح العثمانى لمصر ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

حيث شهدت مصر مع الفتح الإسلامى العربى تغيرًا كبيرًا فى نظمها الدفاعية حيث كان توجيه البلاد بحريًا، غير أنه مع الفتح الإسلامى العربى تغيرت الإستراتيجية الحربية للبلاد وذلك باتخاذ مصر توجيهًا بريًا وليس بحريًا، حيث انتقلت عاصمة البلاد من الإسكندرية إلى الفسطاط، ومع هذا الانتقال للعاصمة تطلب الأمر ضرورة التفكير السريع فى ضمان الحماية البحرية لحدود مصر الشمالية خوفًا من الأساطيل البيزنطية المسيطرة على البحر المتوسط وجزره، ولهذا كان من الضرورى العمل على خلق قوة بحرية لمواجهة الأسطول البيزنطى وحتى تتم هذه الخطوة كانت سلسلة الثغور الممتدة على طول ساحل البحر المتوسط والتى كان من بينها ثغر العريش.

أهداف الدراسة:

١- استرجاع الصورة الجغرافية لثغر العريش خلال العصر الوسيط، أى دراسة الحاضر التاريخى الذى كان قائمًا منذ عدة قرون.

٢ - الخروج بسلسلة من الخرائط التاريخية التى تغطى موضوع الدراسة.

٣ - إبراز الدور المهم لثغر العريش فى العصر الوسيط، وكيف كان بمثابة قلعة وخط دفاع أولي لمصر.

الدراسات السابقة:

هناك عدد من الدراسات السابقة التى استفاد منها الباحث فى دراسته يذكر منها:

١- نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، مطبعة المعارف،

القاهرة، ١٩١٦.

أفادت الدراسة من خلال تناول تاريخ سيناء القديم وعلى رأسها ثغر العريش حيث تعرضت لأصل التسمية بالعريش، وكيف غدت العريش أكبر مدن شمال سيناء منذ القدم وعاصمتها الإدارية، بالإضافة إلى دور العريش الحربي وأحداثها السياسية منذ الفتح الإسلامي العربي لمصر إلى الفتح العثماني "الفترة الزمنية للدراسة".

٢- عباس عمار: المدخل الشرقي لمصر، مطبعة المعهد العلمى الفرنسي، القاهرة، ١٩٤٦.

أفادت الدراسة عند الحديث عن موقع المدينة القديم والحديث، وأنهما يقعان في دائرة واحدة، إضافة إلى الحديث عن أسباب خروج العرب من مصر والاستيطان في سيناء خاصة العريش.

٣- عبد العال عبد المنعم الشامى: الدرب السلطانى "المدخل الشمالى الشرقى لمصر" كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

عرض الشامي لأسباب تقلص العريش العمراني، حيث يذكر أنه أصابها بعض ما أصاب مدينة الفرما من دمار وخراب على أيدي الصليبيين، فضلا عما أصابها من جراء الصراع الذي دار بين شاور وضرغام وتنازعهما على السلطة في مصر في ختام العصر الفاطمي ٥٥٨هـ، مما أثر سلبًا على ثغر العريش.

٤- منى الكيالى: منطقة السهل الساحلى شمال شبه جزيرة سيناء، دراسة جيمورفولوجيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٤.

عرضت منى الكيالي للخصائص الموضوعية للعريش "الحاضر مفتاح الماضي" خاصة الكثبان الرملية أهم مظاهر السطح في المنطقة على الإطلاق، ودورها في نشأة ثغر العريش.

٥- السيد السيد الحسيني: موارد المياه فى شبه جزيرة سيناء، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، عدد أبريل ١٩٨٧.

تناول الحسيني المياه الجوفية بالمنطقة، وكيف كانت المصدر الأساسي للمياه بها، ومدى قيمة هذا المورد في نشأة ثغر العريش.

*** - ثغر العريش:**

العريش مدينة قديمة قائمة على أنقاض مدينة للمصريين القدماء تدعى "رينوكلورا" أى مجدوع الأنف، قيل سميت كذلك لأنها كانت منفى للذين يحكم عليهم بالإعدام، واستبدل الحكم بقطع الأنف(١).

وأما العريش فإنه الاسم الذى أطلقه عليها العرب، ولهذا الاسم ارتباط واضح بالدلالات اللغوية لكلمة عرش فيقال عَرش يَعرش إذا بنى، فالعرش رفع المبانى والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب، وعلى هذا فالعريش ما يستظل به، وعرش فلان أى بنى عريشاً(٢).

والعريش يكون باستخدام جذوع النخيل كدعائم يعلوها أغصان الشجر، وهذا العرائش هى سكن البدو فيما عدا الشتاء والربيع اتقاء للمطر والبرد، فإذا ارتفع المطر وزال البرد أخبئوا خيامهم فى القرى وبنوا لأنفسهم أكواخاً من القش

---

(١) نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩١٦، ص١٧٠.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص٤١٣.

وأغصان الشجر اتقاء الحر والرياح تدعى "عرائس" ولذلك فإن اسم العريش الذى أطلقة العرب كبديل للاسم القديم "رينوكلورا" قد أُطلق عليها لسيادة نمط المسكن فيها حيث كان أهلها يسكنون فى مظال من القش اليابس كما يفعل أهل البادية فى الصيف فسميت محلتهم بالعريش(١).

والسؤال المطروح الآن هو لماذا اختصت العريش دون غيرها بهذا الاسم؟ فهل لأن هذا النمط كان سائدًا فى العريش دون غيرها، أم لأن هذا اللفظ "عريش" كان النمط السائد لاستخدام الأرض حيث كان من زراعاتهم الشهيرة عرائش العنب "الكروم" وهى السقائف للنبات والشجر المتسلق، ومن ثم يقال إعترش العنب العريش، وعلا العريش علاه واسترسل عليه، ويؤكد ذلك ما جاء عند ابن حوقل عن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه من أن الجفار- يقصد بها التكوينات الرملية التي تسود السهل الساحلي الشمالي من شبه جزيرة سيناء - (العريش/ الفرما/ رفح/ الورادة/ البقارة) كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى: (**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**)(*) عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، وقال لذلك سميت العريش عريشًا(٢).

وفى هذا يقول الزبيدى: إن العريش هى ما عُرش للكروم من عيدان تجعل كهيئة السقف والعريش خيمة من خشب وأحياناً تسوى من جريد النخيل(٣).

---

(١) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٠، ٣٧٣.

(*) سورة الأعراف: الأية رقم (١٣٧).

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ط٢،القسم الأول، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧، ص١٤٤.

(٣) الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم التـرزى، مطبعـة حكومـة الكويت، ١٩٧٢.، باب عرش.

أيضًا من دلالة اللفظ "عريش" عَرش البئر أى طيها بالخشب، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة، وفى هذا يقول الأعرابي من أسماء البئر الركية، فإذا طويت بخشب فهى معروشة[1]. ومن ثم تكون المدينة قد اكتسبت اسمها من خلال سيادة هذه الصورة لموارد المياه فيها.

وأخيرًا يمكن القول إن تسمية العريش قد جاءت بسبب كل الدلالات السابقة وهى متوافرة فى موضع العريش، ومن ثم فليس غريبًا أن تختص العريش بهذه التسمية دون غيرها.

أولاً: الموقع والموضع.

يتمثل ثغر العريش فى العصر الوسيط فى النواة القديمة للمدينة الحالية شكل (١)، وكانت على ما يزيد قليلاً عن الكيلومتر الواحد من الضفة اليسرى لوادى العريش قبل مفيضه مباشرة، وغير بعيدة عن ساحل البحر المتوسط بأكثر من ثلاثة كيلومترات.

(١) ابن الأعرابى: كتاب البئر، تحقيق رمضان عبد التواب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٥٩.

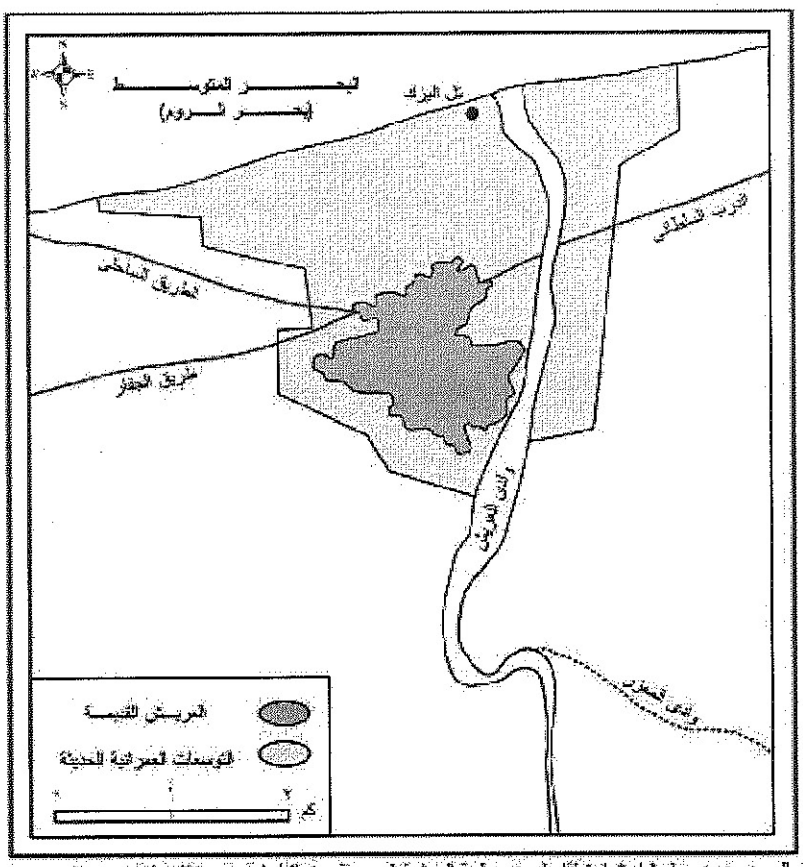

المصدر : من عمل الباحث اعتمادًا على : مصلحة المساحة المصرية ، خرائط ١ : ٢٥٠٠٠ ، ١ : ١٠٠٠٠٠ .

شكل (١) مدينة العريش وتل الزلك.

وهى تشغل فى هذا الموضع منطقة مرتفعة نسبيًا عما حولها بفضل وجود تكوينات رملية من تلك التى تسود هذا السهل الساحلى الشمالى لسيناء[١].

وفى ضوء هذه الملامح الطبوغرافية فإن ثغر العريش قد أصبح له موضع حصين بفضل وادى العريش المتسع عند مفيضه فهو بمثابة خندق ش كما أن

(١) محمد حجازي محمد: العمران والمراكز العمرانية في محافظة شمال سيناء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص ص٣٩، ٤٠.

موقعها الداخلى نسبيًا عن البحر قد جعلها فى مأمن من أن تطرقها السفن المعادية، وفوق ذلك فقد كان لها مرقب متقدم على" تل اليزك" يشرف مباشرة على سيف البحر كما سيأتى.

ولعل اليعقوبى- الذى مر بثغر العريش أواخر القرن الثالث الهجرى- هو أول من أشار إلى الوظيفة الحربية للعريش ودورها على الدرب السلطانى(المدخل الشمالي الشرقي لمصر)- كما سيأتى- فهو كما قال: "أول مسالح[١] مصر وأعمالها، ويسكن العريش قوم من جذام[٢] وغيرهم، وهى قرية على ساحل البحر"[٣].

والعريش وإن لم تكن أول ثغور مصر الساحلية فى شمال سيناء – إذ يسبقها رباط الشجرتين عند بداية الحدود(وقد ظل هذا الموضع معروفًا بهذا الاسم حتى بعد زوال الشجرتين لفترة طويلة كما جاء عند ابن فضل الله العمري[٤] – إلا أن العريش كانت أول مدينة حربية لها قيمتها ووزنها فى هذا المجال، فضلاً عن حصانتها وحجمها بفضل سكانها الذين كان لهم دور كبير فى المجال الحربى عبر تاريخها الطويل.

هذا ويدل اصطلاح الموضع على الصفات الطبيعية للمنطقة، والتي تنفرد بها

---

(١) المسالح: مواضع المخافة، والمسلحة هم القوم الذين يحفظون الثغور من العدو سموا مسلحة لأنهم يكونون ذوي سلاح أو لأنهم يسكنون المسلحة... انظر ابن منظور: لسان العرب، بولاق، ١٣٠٢هـ.

(٢) جذام: أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا مع عمرو بن العاص أثناء الفتح الإسلامي. انظر القلقشندى: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٣٠، ص٥٨.

(٣) اليعقوبى: البلدان، ط٣، النجف، ١٩٥٧، ص٨٦.

(٤) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص١٧٣

عن غيرها من المواضع، وتشتمل على السطح، التربة ومواردها المائية إلى غير ذلك.

وفيما يلى دراسة للخصائص الموضوعية لثغر العريش:

١- السطح:

بملاحظة الخريطة الكنتورية شكل (٢) يتبين أن طبيعة الأرض التي قام عليها ثغر العريش مستوية تقريبًا، ويبلغ منسوبها نحو ٢٠مترًا، ولكنها سرعان ما تتدرج في انخفاضها حتي تقترب من مستوى سطح البحر. أي أن العريش قامت في منطقة مرتفعة نسبيًا عما حولها بفضل وجود تكوينات رملية كما سيأتي بيانه.

ولعل أهم ظاهرات السطح والتى لعبت دورًا مهمًا فى نشأة الثغر هي:

أ- الكثبان الرملية:

الكثبان الرملية شكل (٣) هى أهم مظاهر السطح فى منطقة الدراسة على الإطلاق وتبدو الكثبان على هيئة سلاسل موازية لاتجاه الرياح المسئولة عن قيامها من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى [١].

وتُعَد الكثبان الرملية فى منطقة الدراسة من أهم العوامل الطبيعية التى ساعدت على نشأة الثغر بها، حيث تختار الوظيفة الحربية لنفسها مواضع حاكمة للمواقع المختارة، فالموضع الحربى يجب أن يكون أساسًا نقطة قوية، أى توفر الحد الأقصى من إمكانات ومناورات الهجوم والدفاع، أى الحد الأقصى من الحماية والأدنى من الأخطار، ويتوفر هذا الموضع الجيد حين يوجد تناقض مورفولوجى محلى[٢].

---

(١) منى الكيالى: منطقة السهل الساحلى شمال شبه جزيرة سيناء، دراسة جيمورفولوجيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٤، ص ١٧.

(٢) جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٢.

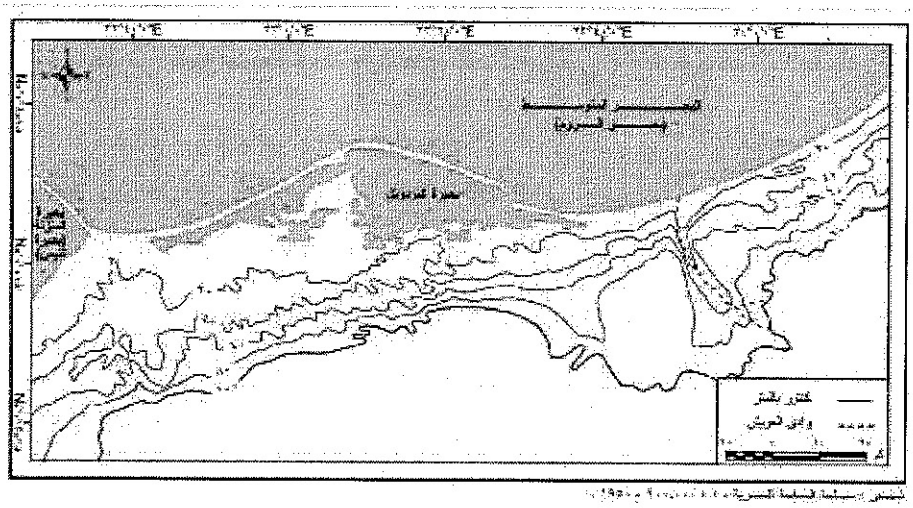

شكل (٢) الخريطة الكنتورية لمنطقة الدراسة

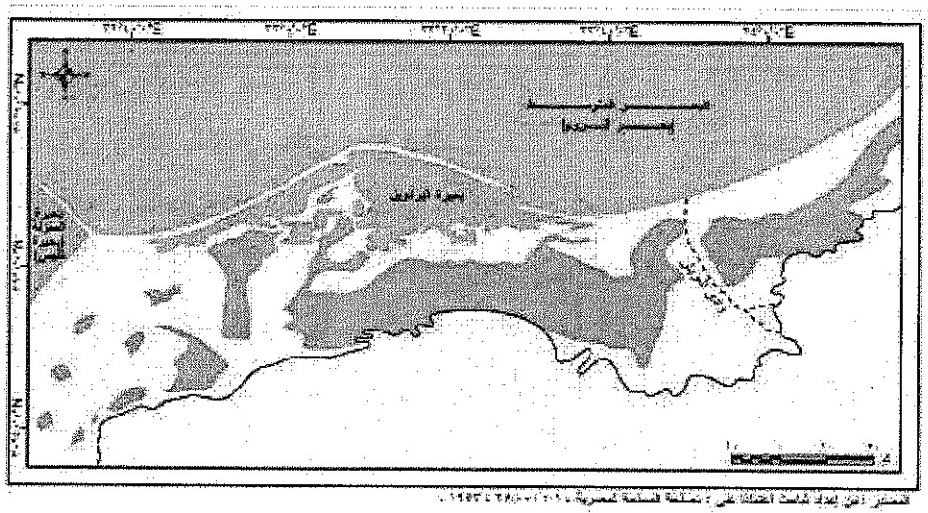

شكل (٣) الكثبان الرملية لمنطقة الدراسة

ولهذا بنيت المدن مثل العريش ورفح وغيرها على التلال الرملية الثابتة، ولازلنا حتى الآن نرى أثر الوظيفة الحربية باديًا عليها، ومازالت آثار القلاع والحصون

الدفاعية فيها حتى اليوم.

وللكثبان الرملية قدرة كبيرة على امتصاص مياه الأمطار التى تهطل على الساحل واختزانها، وتطلب مياهها بدق الآبار فى التجويفات الواقعة بين هذه الكثبان وهي آبار قليلة العمق يتراوح عمقها ما بين ٢-٩ متر[١].

ب- وادى العريش:

يمثل وادي العريش مظهرًا من أهم المظاهر الجغرافية في شبه جزيرة سيناء، إذ يُعد أكبر وحدة جيومورفولوجية، ليس في سيناء فحسب وإنما في مصر برمتها بعد وادى النيل.

هذا وتقوم علي الرواسب التي جلبتها سيول وادي العريش وروافده معظم المناطق الزراعية بمنطقة العريش، كما كان لقيام مدينة العريش على احدي ضفتي الوادي أبلغ الأثر في أن يستعين أبناؤها بتربته لبناء مساكنهم التي أخذت مع الزمن شكلا مستطيلا أو متطاولا تبعا لامتداده، مما جعل شوارع المنطقة تمتد موازية له أو عمودية عليه، بمعني أن الوادي عمل علي تحديد خطة المدينة، كما عمل أيضا علي تحديد عمرانها وامتداده.

٢- التربة:

تشكلت تربة منطقة العريش من الرواسب المستمرة التي حملتها سيول المياه المتجهة نحو البحر المتوسط.وهذه الرواسب الفيضية الناعمة يتراوح سمكها ما بين ٢٥ -١٠٠سم، تختلط بطبقة من الرمال الكوارتزية التي أذرتها الرياح والتي يتراوح سمكها ما بين بضعة سنتيمترات إلى أكثر من متر واحد، وشظايا

(١) محمد صفى الدين أبو العز: شبه جزيرة سيناء والصراع العربي الإسرائيلي، الندوة الدولية لحرب اكتوبر ١٩٧٣، المجلد الرابع، القطاع الحضاري، إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة،١٩٧٦، ص ١٦٣.

الأصداف بنسب مختلفة، ويبلغ منسوب الرواسب الحديثة عند مدينة العريش ٢ مترًا فوق مستوى سطح البحر المتوسط وهى تربة صالحة للزراعة[١].

وأهم أنواع الأراضي هنا وأكثرها انتشارًا هى الكثبان الرملية الساحلية، ويتفاوت عمقها ما بين ٢٠ – ٤٠ سم إلى الغرب من العريش، وتنخفض نسبة الأملاح الذائبة في هذه التربة إلى حوالي ١.%، وتفتقر إلى المواد العضوية[٢]

وتعد هذه المناطق حيوية في المنطقة الساحلية لزراعة الحبوب وخاصة"القمح والشعير والذرة"، والخضر والخروع والفاكهة. وينبغي أخذ هذه المناطق بعين الاعتبار ووضعها على رأس قائمة الأراضى المطلوب التوسع المستقبلى فيها لأن إمكانات التنمية الزراعية فيها متكاملة الأركان فالمياه يسهل الحصول عليها من مصدريها المطري والجوفي كما سيأتي، وخواص التربة " التحليلية " أكدت صلاحيتها للزراعة.

٣- موارد المياه:

يعد توفر مورد مائى عذب من المعطيات الجغرافية المهمة التى ساعدت على نشأة المراكز العمرانية عامة والثغور علي طول الساحل السيناوي الشمالي خاصة، وعلي رأس هذه الثغور كان ثغر العريش، فالماء مطلب أساسي للحياة، حيث يتوقف حجم أي مركز من مراكز الاستقرار البشري وكثافة السكان فيه على كمية المياه التي تتوافر فيه..

وتنقسم موارد المياه فى منطقة الدراسة إلى نوعين:

---

(١) محمد صفى الدين أبوالعز: مورفولوجية الأراضي المصرية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٢٥.

(٢) مركز بحوث التنمية والتخطيط التكنولوجي، التخطيط الهيكلي لشبه جزيرة سيناء، جامعة القاهرة، الدراسات البشرية، ج ١، ١٩٨٢، ص ١٦٧.

أ- مياه سطحية.

ب- مياه جوفية.

أ- المياه السطحية:

يتمثل هذا المصدر فى مياه الأمطار التى تهطل على منطقة الدراسة فى شهور الشتاء، وهي مصدر المياه السطحية والجوفية، فإذا ما هطلت بكميات مناسبة أجرت الخير العميم علي الحيوان والإنسان معًا، وإن بلغت في هطولها حد الإسراف بحيث كانت أكبر من درجة البخر وأكبر من تشبع الأرض أجرت الوديان بالسيول المدمرة وربما كان ذلك هو الدافع لتسلق مدينة العريش أعلى نقطة في المنطقة.

هذا وتعد السيول مصدرًا مهمًا من مصادر المياه السطحية فى منطقة الدراسة وذلك تبعًا لتأثيرها المباشر كمورد مائى سطحى، وأما تأثيرها غير المباشر ففى كونها سببًا فى زيادة المنسوب المائى الجوفى للخزانات التى توجد في منطقة الدراسة، حيث أثبتت قياسات معهد الصحراء لعدد غير قليل من الآبار قبل مرور السيل وبعده، أن منسوب الماء الجوفى فى الآبار يرتفع حوالى ٧٠سم نتيجة للسيل ولكن لا يلبث هذا التأثير أن يتلاشى ويستعيد الماء الجوفى مستواه الأصلى بعد انقضاء فترة طويلة من حدوث السيل، وذلك بعد سحب المياه من الآبار أو تسربها دون السطح نحو المصب[1].

ولعل هذا يقف دليلاً على أهمية السيول إلى جانب الأمطار كمصدر للمياه تحت السطحية فى بطون الأودية.

---

(١) إسماعيل محمود الرملى: تخطيط مصادر المياه لشبه جزيرة سيناء، قسم بحوث مصادر المياه، معهد الصحراء، القاهرة، د/ت، ص،٢٥.

ب- المياه الجوفية:

تُعَد المياه الجوفية المصدر الأساس للمياه فى منطقة الدراسة، ويمكن التعرف على نوعين للمياه الجوفية فى منطقة الدراسة:

* المياه الموجودة بالقرب من سطح الأرض والتى تختزن فى الرواسب الفيضية فى بطون الأودية والكثبان الرملية وتسمي بطبقة الرشح، ويمكن العثور علي مياه هذه الطبقة بالقرب من الساحل علي أعماق قريبة من سطح الأرض تتراوح ما بين ٢,٥ – ٨ متر.

* المياه الجوفية التى تختزن فى الصخور الرسوبية والتى توجد على أعماق كبيرة من سطح الأرض(١). وتسمي بطبقة الفجرة ويبلغ سمكها ٦٠مترًا، وتستمد مياهها من ثلاثة مصادر رئيسة هى:

١- في منطقة لحفن تصل المياه إلي أعلى بالخاصية الشعرية عبر الفوالق والشقوق المتوافرة في طبقات الحجر الرملي.

٢- بواسطة الرشح الأفقي لخزانات المياه الجوفية الموجودة بشرق البحر المتوسط.

٣- من مياه الأمطار المحلية.

هذا وتوجد المياه بطبقة الفجرة علي أعماق تتراوح ما بين ١٠- ٥٠مترًا دون سطح الأرض(٢).

ويعد خزان دلتا وادى العريش أهم خزانات المياه الجوفية فى شبه جزيرة

---

(١) السيد السيد الحسينى: موارد المياه فى شبه جزيرة سيناء، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، عدد أبريل، ١٩٨٧، ص ٤٠.

(٢) فوزية محمود صادق: إمكانات التنمية الزراعية في سيناء، ندوة دور الجغرافيا في تنمية سيناء، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨١، ص ٧.

سيناء علي الإطلاق حيث تمتد دلتا وادي العريش من الساحل عند العريش وحتى ١٥كيلو متر إلى الداخل وهي علي شكل مثلث كبير يقع رأسه عند بئر لحفن جنوب العريش، وقاعدته ساحل البحر، وتمتد القاعدة بطول ٤ كم، وضلعها ٦، ٥,٥كم وتتكون هذه الدلتا من رواسب الحصى والرمال والطمى التى يتراوح سمكها بين ٤٠:٦٠ مترًا وسمك الطبقة الحاملة للمياه يتراوح بين ١٠:٣٠ مترًا وهذه الرواسب هى الخزان الطبيعى للمياه الجوفية فى منطقة الدراسة(١).

ويتغذى هذا الخزان على مياه الأمطار المحلية إلى جانب المياه المتسربة من السيول الجارية سواء فى الوادى الرئيس أو القادمة من روافده الشرقية الأوفر مطرًا مثل وادى الأزاريق وحريضين شكل (٤)، ويمكن الوصول إلى المياه بهذا الخزان على عمق يتراوح بين ١٥: ٤٠ مترًا فوق سطح الدلتا نفسها(٢).

ويمكن القول بأن هنا مصدر ثالث لتغذية هذا الخزان هو المياه من الطبقات الجيولوجية الأقدم التي تدنوه عن طريق عدد من الفوالق في جنوب شرق المنطقة.

هذا وتعد الآبار أهم صور المياه الجوفية فى ثغر العريش شكل (٥)، وذلك لوجود الخزان الجوفى لدلتا وادى العريش، وتستمد معظم هذه الآبار مياهها من رواسب الزمن الرابع سواء أكانت رواسب فيضية فى بطون الأودية ودالاتها أم من الكثبان الرملية.

---

(١) كمال فريد سعد: تقرير مبدئى عن هيدرولوجية المياه الجوفية بوادى العريش، وحدة البحوث الهيدرولوجية، معهد الصحراء، وزارة الزراعة، القاهرة، ١٩٦٢، ص٤.

(٢) الشاذلى محمد الشاذلى وآخرون: جيولوجية شبه جزيرة سيناء، أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، مركز الاستشعار من بعد، القاهرة، د/ت، ص ٢٦.

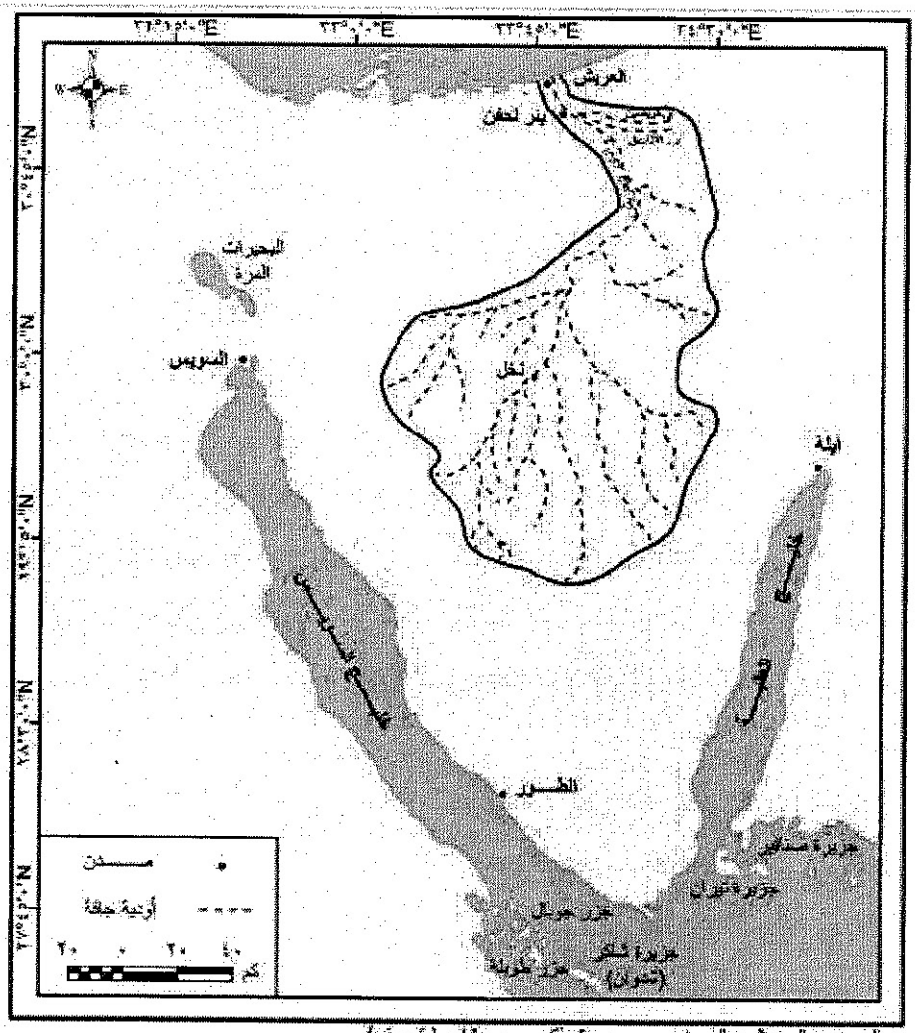

المصدر : السيد السيد الحسيني ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ . (بتصرف)

شكل(٤) حوض وادي العريش

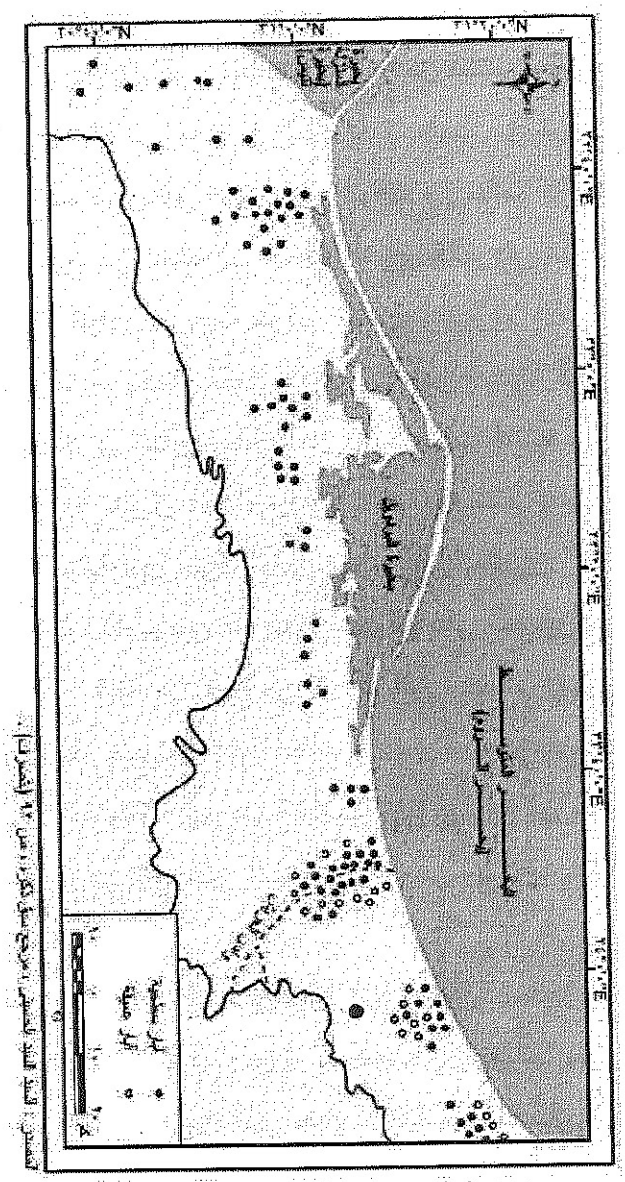

شكل(٥) توزيع الآبار بمنطقة الدراسة

ثانيًا: نشأة المدينة ومبررات وجودها:

تتعدد الروايات وتتباين حول نشأة مدينة العريش فتلتقي حينا وتتفرق حينا آخر، وترى أحدى هذه الروايات أن الملك حور محب مؤسس الأسرة التاسعة عشرة حكم على الموظفين المرتشين بقطع أنوفهم وإرسالهم إلي حصن سيلا، ولعلهم كانوا يرسلون من هناك إلي مناطق أخرى كالعريش مثلا، سيما واسم المدينة القديم رينو كولورا ترجمة حرفية لكلمتي مجدوعو الأنف، وعليه فقد يكون الملك حور محب واضع اللبنة الأولى في صرح مدينة العريش.

وهناك رواية أخرى تطابق سابقتها من حيث سبب النشأة وإن كانت تتباين معها في زمن النشأة، وترى هذه الرواية، أنه لما وقعت مصر تحت حكم اكتيزانيس ملك الحبشة أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين "٧١٢- ٧٠٠ ق.م" قام بعمل جليل بشأن اللصوص فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البته، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلي حدود الصحراء، وانشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أي مجدوعة الأنف نسبة إلي سكانها، وهي تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر(١).

وبالرغم من أن ما ذهب إليه ديودور الصقلي يمثل الحقيقة المنظورة، نظرا لقرب عهده بمولد المدينة نسبيا، حيث لا يفصله عن نشأتها سوى بضعة قرون، وهي كفيلة بعدم اندثار المصير الذي صارت إليه من أذهان الناس ولاسيما

---

(١) ديودور الصقلي في مصر، نقله من اليونانية وهيب كامل، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، ص ١١١.

المؤرخين منهم ورجالات الفكر، إلا أن الباحث يرى أن المدينة ترجع إلي عهود أقدم من ذلك بكثير نظراً لموقعها على الطريق الحربي والتجاري وموضعها المتميز على ضفاف وادي العريش حيث المياه القريبة من سطح الأرض والسهل الفيضي الذي يُمكن من قيام الزراعة وهما عنصرا الاستقرار والتوطن.

ولكن إذا كان الحال كذلك فأين اختفت معالم المدينة التي تؤكد صحة ما ذهب إليه عالية؟ يمكن القول أنه بدراسة الظروف الجيولوجية والجغرافية لمنطقة المدينة يتضح أنها ربما تعرضت لزلزال قوض جل مبانيها كالذي ضرب كلا من مدن غزة والرملة والإسكندرية[1]، وأحالها إلي إطلال خربه، سيما ومبانيها طينية سهلة الهدم، أو أنها تعرضت كغيرها من مدن الشريط الساحلي للهجوم من قبل البدو الذين كثيرًا ما أغاروا على الحضر ومواطن الاستقرار ليصيبوا منه ما حرمتهم الطبيعة في سنوات المحن والجدب التي ينقطع فيها المطر، مما يترتب عليه نفوق جل مواشيهم التي تقوم عليها حياتهم، أو أن عدوًا خارجيًا هدم بيوتها وشرد أهلها، أعقب هذا زحف جحافل الرمال التي تسفيها الرياح لتدثر وتحجب المدينة، ومما يدعم هذه الآراء ويعززها أن الأهالي كثيرًا ما يعثرون وهم يعدون الأرض للزراعة على حوائط أبنية قديمة يستخدمون حجارتها في بناء مساكنهم[2].

ولا يختلف النذر اليسير ممن دون عنها حول موقعها القديم والحديث، حيث

---

(١) تقى الدين بن علي المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الطبعة الثانية، الجزء الأول، القسم الثالث، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص٧٨٣.
أنظر أيضا: ج، بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٣٣٦.

(٢) أبو الحجاج حافظ: سيناء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٥.

يرون أنهما تقعان في دائرة واحدة وأن هناك توافقًا في موقعهما[١]، والطالب يوافق على هذا التوافق سيما وأن بقايا القلعة الحالية تقوم على أنقاض قلعة أقدم منها، وربما تقف جبانة قديمة دون الجبانة الحديثة، وتغطي بقايا الفخار مساحة كبيرة تدل على أن مساحة المدينة كانت تبلغ حوالي ثمانية أميال مربعة[٢].

ثالثًا: النمو العمراني لثغر العريش في العصر الوسيط.

لعل أول ذكر لثغر العريش عند الرحالة والجغرافيين العرب في العصر الوسيط كان عند اليعقوبى (ت ٢٩٢هـ) بأنها أول مسالح مصر وأعمالها، ويسكنها قوم من جذام وغيرهم وهى قرية على ساحل البحر"[٣].

ثم يذكرها ابن خرداذبه (ت٣٠٠هـ) ضمن ثغور مصر البحرية المهمة على ساحل شمال سيناء[٤].

وهو هنا يؤكد على وظيفتها الحربية بكونها إحدى ثغور مصر البحرية المهمة على طول ساحل البحر.

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى نجد ابن حوقل (ت٣٦٦هـ) يذكرها بأنها مدينة ذات جامعين مفترقة المبانى، والغالب عليها الرمل وهى قريبة من الساحل ولها فواكه وثمار حسنة، ويستطرد حين يذكر ما جاء عند عبد الله بن عبد الحكم الفقيه أن الجفار كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان وأن قول الله تعالى: **(وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ**

---

(١) عباس مصطفى عمار:، المدخل الشرقي لمصر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٤٦ ص ص٤١،٤٠.

(٢) عباس مصطفى عمار، المرجع السابق، ص ٤٠.

(٣) اليعقوبى: مرجع سبق ذكره، ص٨٦.

(٤) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩، ص٨٠.

فِرعَونُ وَقَومُهُ وَمَا كَانُوا يَعرِشُونَ)[*] عن هذه المواضع، وإن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن وقال لذلك سميت العريش عريشًا[1]. ويتضح من هذه العبارة أن عمران المدينة كان متناثرًا وليس ملتحمًا، جريًا على العادة السائدة لدى القبائل العربية، التي تتخذ كل منها حيًا من أحياء المدينة، يتوسطه المسجد الذي يشيد في بداية حلهم، ومن ثم يلتف حوله العمران.

كما يمكن القول بأن مدينة العريش نمت حول نواتين أو أكثر، مثل كل منهما المسجد والمساكن المحدقة به، والمسافة بين الجامعين ليست باليسيرة، كما يفهم من إشارة أحد رحاله القرن الحادي عشر الهجري" وألقينا شقة البين"، حيث قال" ونزلنا هناك في مكان عند باب القلعة، وصلينا في ذلك الجامع، واجتمعنا بعد صلاة المغرب بالرجل الصالح سليمان الخطيب، وأخبرنا أنه يخطب في جامع آخر هناك، فيه قبر الشيخ محمد الدمياطي، فقمنا وذهبنا إلي زيارته بين العشاءين، وألقينا شقة البين"[2].

وقال عنها المقدسي (٣٣٥/٣٩٠هـ): "فأما الجفار فقصبتها (عاصمتها) الفرما ومدنها البقارة "بئر العبد"، الوراده "بئر المزار"، العريش، والمدن التي ذكرناها وسطها وفيها طرق ونخيل وآبار وعلى كل بريد حانوت وبئر إلا أن الريح ربما لعبت بالرمال فغطت الطريق والسير فيها صعب[3]، ويفهم من حديث المقدسي

(*) سورة الأعراف: الأية رقم (١٣٧).

(١) ابن حوقل: مرجع سبق ذكره، ص١٤٤.

(٢) عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد أحمد عبدالمجيد هريدى، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٨٦.

(٣) المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، طبع بمطبعة بريل بمدينة ليدن، ١٩١٩، ص ص ١٩٣- ١٩٥.

أن المدينة كانت أحدى مدن الجفار "شمال سيناء"، بلاد العريش" وأن الفرما هي عاصمته.

وفي سنة ٤١٥هـ (١٠٢٧م) وبعد أن بسط الفاطميون نفوذهم على مصر، طرق عبد الله بن إدريس الجعفري المدينة بمعاونة بني الجراح وأحرقها وأخذ جميع ما فيها[١]، وهي المرة الأولى وليست الأخيرة- كما سيأتي- التي تتعرض فيها المدينة لعمل وحشي كهذا، أتى لا شك على معظمها، ولكن تلك الفعلة الوحشية لم تبعد العرايشية عن مدينتهم، حيث عادوا إدراجهم لبناء ما هدم.

ولم تكد هذه الحادثة تغيب عن الأذهان، حتى برز الخطر الصليبي إلي الوجود، ومن ثم احتل بلاد الشام وبيت المقدس وهدد مصر لولا تداركها صلاح الدين، الذي وحد صفوف المسلمين وأصلح من شأنهم المعنوي والمادي، كما قام بإصلاح طريق العريش الذي أصابه الخراب في عام ١١٦٥م، توطئة لدحر الصليبين في معركة حطين سنة ١١٨٧م.

وانتقامًا لهذا الانتصار المظفر، هجم الصليبيون في عام ١١٨٩م على مدينة العريش وقطعوا أكثر نخيلها وحملوه معهم دونما مقاومة تذكر[٢]، مما كان له والأحداث السياسية السالفة الذكر أكبر الأثر على اقتصاديات المدينة وتسبب في هجرة العديد من أهلها وتقلص العمران وانكماشه.

وعلى أثر تقهقر نفوذ الخطر الصليبي، وقبيل زواله بفترة وجيزة، مر بمدينة العريش الرحالة يا قوت الحموي فى الربع الأول من القرن السابع الهجرى

---

(١) تقي الدين المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢،الجزء الأول، القسم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ٢١١.

(٢) أبي عبد الله محمد الواقدي، كتاب فتوح مصر والإسكندرية، طبع بمدينة ليدن، ١٨٣٥، ص ١٥.

(ت٦٢٦هـ) فكتب عنها قائلا العريش بفتح أوله وكسر ثانية هو ما يستظل بـه وهى مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الـروم فـى وسط الرمل" ثم ينقل عن ابن زولاق عند حديثه عن فـضائل مـصر، وفيهـا العريش والجفار كله وما فيه من الطير والجوارح والمأكول والـصيد والتمـور والثياب وبها الرمان العريشى لا يعرف فى غيره دلالة على جودته.

وينقل عن الحسن بن محمد المهلبى حين قال ومن الورادة إلى العريش ثلاثة فراسخ[١] والعريش مدينة جليلة، وهى حرس مصر منذ القدم وهى آخر مدينـة تتصل بالشام من أعمال مصر ويتقلدها والى الجفار دلالة على عظمها ومكانتها، وهى مستقرة وفيها جامعان ومنبران وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب وبها سوق جامع كبير وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجار ونخل كثيـر وفيهـا صنوف من التمور ورمان يحمل إلى كل بلد، وأهلها من جذام[٢].

ويتضح من مقوله ياقوت أن مدينة العريش قد غدت على رأس الهيراركيـة الحضرية لمدن شمال سيناء أو عاصمة الجفار(شمال سـيناء)، ممـا كـان لـه بالاشتراك مع تقهقر الخطر الصليبي، أكبر الأثر في حالة الاستقرار والـرواج الاقتصادي الذي صارت إليه، ولا شك أنه قد ترتب على ذلك هجرة وافدة إلـي المدينة نجم عنها امتداد عمراني.

وبقيام دولة المماليك في مصر عام ١٢٦٠م، دأبت على محاربة الـصليبيين

---

(١) الفراسخ: جمع فرسخ وهو مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال عربية. انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٧٠٧.
والفرسخ يساوى بالأمتار ٥٥٠٠ مترا. انظر نظير حسان سعداوى: نظام البريد فـى الدولـة الإسلامية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٦٨. وحدد أيضا بما يساوى ٥٥٤٤ متـرا. ومن ثم فالفرسخ يتراوح بين ٥,٥ إلى ٦كم.
(٢) الحموى: معجم البلدان، طبعة ليبزج،١٨٦٦، باب العين والراء وما يلهما.

حتى أجلتهم عن المنطقة، وبرحيلهم طويت صفحة قاتمة من صفحات الشرق والغرب على السواء، سواء على تجار المنطقة أو عمرانها الذي ربما تقلص لنزوح إعداد غفيرة من التجار لتعارض مصالحهم ونشوب الحروب، سيما وأن طريق التجارة المار بأراضيهم قد تحول إلي طريق الصعيد/ البحر الأحمر[١]، وعامة الناس الذين تتوقف حياتهم على تقديم الخدمات للقوافل، فضلا عن الهلع الذي انتابهم إزاء ما فعله الصليبيون بمدينة الفرما، حيثّ ذبحوا أهلها وأحرقوا جوامعها حول منتصف القرن السادس الهجري[٢] ولعل مدينة العريش قد أصابها أيضًا بعض الذي أصاب مدينة الفرما (شكل ٦) من دمار وخراب على أيدي الصليبين، فضلاً عما أصابها أيضًا، من جراء الصراع الذي دار بين شاور وضرغام وتنازعهما على السلطة في مصر في ختام العصر الفاطمي ٥٥٩هـ[٣] مما كان له أكبر الأثر في تقلصها العمراني.

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، الجزء الثاني، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨١، ص ٨٠٩.
(٢) نعوم شقير، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣٢.
(٣) عبد العال عبد المنعم الشامي، مدن الدلتا في العصر العربي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه إلي كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم الجغرافيا، ١٩٧٧، غير منشورة، ص ٢٠٧.

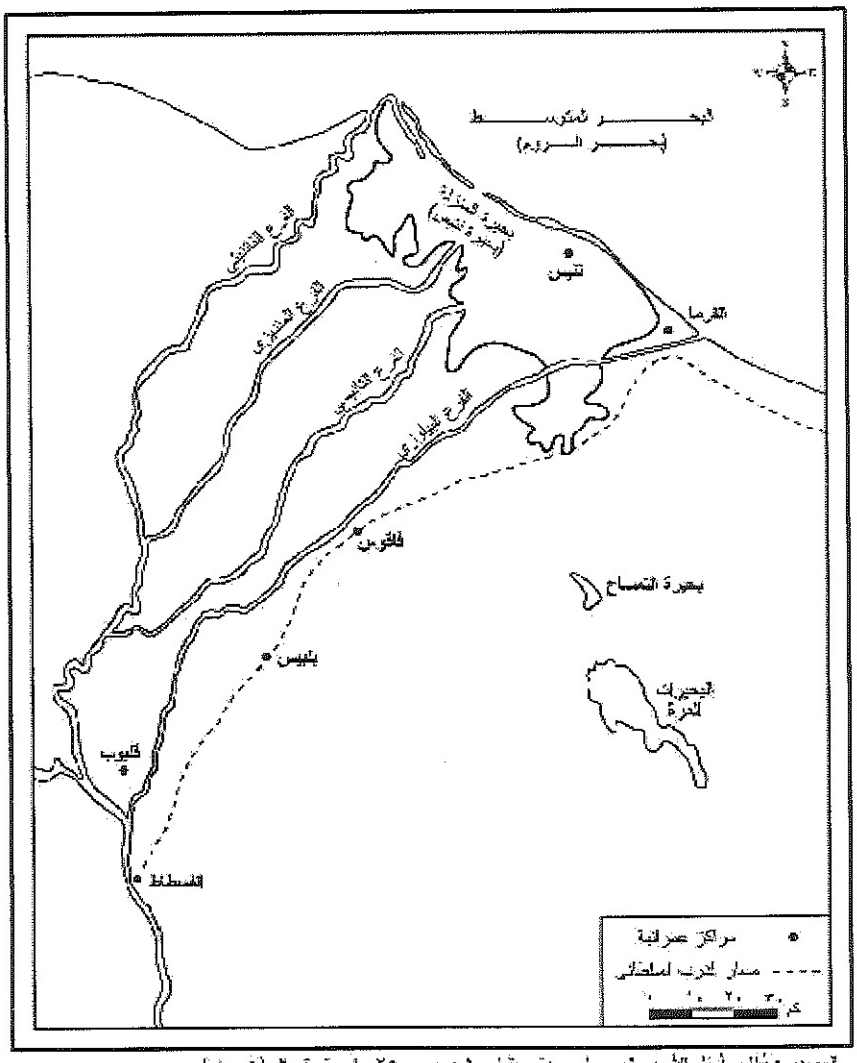

المصدر : أطلس أعمال الأرض "عصر شوسون" ، مقياس ١ : ٢٥٠,٠٠٠ ، لوحة رقم ٦ . (بتصرف)

شكل (٦) ثغر الفرمـــا .

وكما عمل الصليبيون على تقليص العمران في المنطقة بشكل مباشر أو غير مباشر، عمد المماليك إلي امتداد عمران المدينة بطريقة مباشرة وغير مباشـــرة،

حيث أمر السلطان الحاكم بأمر الله في سنة ٦٩٢هـ (١٣٠٤م) ببناء

بئر في العريش، وسخر لذلك عددا من الغواصين، فلما تم بناؤها ركب عليها ساقية[١]، لتحمل مياه الري إلي الأراضي المنزرعة أو المستصلحة، ولم يكن المماليك الشراكسة يرتاحون لازدياد العنصر العربي في مصر، بل كانوا يفضلون عليهم العناصر التركية والشركسية "أبناء جلدتهم" مما دعا بعض العرب إلي الخروج من مصر والاستيطان في صحراء سيناء. ويرجح أن معظم هؤلاء قد استقروا في مدينة العريش، لتوافر فرص العيش فيها عن غيرها من مناطق شبه جزيرة سيناء، وقفل البعض الآخر راجعا إلي فلسطين[٢].

ومع نهاية القرن السابع الهجرى يذكرها ابن سعيد المغربى (ت٦٨٥هـ) العريش "كانت مدينة منيعة فى طريق الرمال"[٣].

ومع القرن الثامن الهجرى يذكر صاحب تقويم البلدان أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ) العريش كمنزلة (محطة) على شط بحر الروم، وبها آثار قديمة[٤].

ومع منتصف القرن الثامن الهجرى نجد ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ) يقول: "إن العريش قد شهدت قيام خان[٥] حصين يأوى إليه

(١) تقي الدين المقريزي، مرجع سابق، ص ٧٨٣.
(٢) عباس مصطفى عمار، مرجع سابق، ص١١٠.
(٣) ابن سعيد المغربى:): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل المغربى، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٧٠، ص١٤٩.
(٤) أبو الفدا: تقويم البلدان، طبع باريس، ١٨٤٠، ص١٠٩.
(٥) خان: هى كلمة فارسية ومعناها منزل أو سوق، وكان لها وظيفتها فى التخزين والبيع ومسكن للتجار الغرباء مثلها فى ذلك مثل الفنادق. انظر آمال العمرى: المنشآت التجارية فى القاهرة فى زمن الأيوبين والمماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥،ص٢٠١.

من ألجأه المساء وينام فيه آمنًا من طوارق الفرنج، كما أقيم بها ساقية وسبيل"[١].

وهذا يعكس مدى استقرار الأوضاع فى دولة سلاطين المماليك وعنايتهم بالطرق على طول الدرب السلطانى، ولقد انعكس هذا الاستقرار بدوره على ثغر العريش وغيره من ثغور مصر الساحلية، حيث شهد ثغر العريش قيام خان حصين يكون بمثابة مأوى لمن حل عليه المساء، ليس هذا فحسب بل يدفع عن سكانه أخطار الفرنج وهجماتهم المتكررة.

هذا وقد زار مدينة العريش الرحالة ابن بطوطة ودون عنها في كتابه "تحفة النظار في غرائب وعجائب الأمصار قائلاً: "ثم وصلت إلي الصالحية، ومنها دخلنا الرمال، ونزلنا منازلها مثل السوادة والواردة والمطليب[٢] والعريش والخروبه، وبكل منزل منها فندق، وهم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته"[٣]، لم يزد ابن بطوطة عما ذهب إليه ابن فضل الله العمرى، مما يؤكد صحة الصورة المشرقة التي نقلها الأخير، والتي تزايدت بهاء في أعقاب زوال الخطر الصليبي. وتدفق القوافل، التي أثريت منها العريش اقتصاديا وعمرانا، وغمرت خزينة الدولة المملوكية من مكوسها والتعامل معها، إزاء هذا عاشت مصر أغنى أيامها وكذلك المدينة.

ومع أواخر القرن الثامن الهجرى نجد ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ) يذكر

---

(١) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص١٩١.

(٢) الراجح أنها تقع بين المزار والعريش ولم يستدل على موقعها.

(٣) ابن بطوطة، تحفه النظار في غرائب وعجائب الأمصار، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤، ص٥٤.

العريش كبلدة على شط بحر الروم- وقد استعادت بعض حجمها العمرانى- وبها آثار قديمة وعمائر ورخام وغير ذلك- مما يدل على سابق عهدها كمدينة حربية حصينة- وهى فى الغرب والجنوب من رفح، وهى حد مصر من الشام(١).

وفى نفس الفترة الزمنية يأتى القلقشندى (ت ٨٢١هـ) ويذكرها "مدينة كانت ذات جامعين مفترقى البناء وثمار وفواكه (٢).

ومع منتصف القرن التاسع الهجرى نجد المقريزى (ت٨٤٥هـ) يقول: "إن العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين وإقليم مصر وهى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختفت بعد الطوفان" وذكر عن إبراهيم بن وصيف شاه عن مصرايم ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أنه لما قرب من مصر بنى له عريشًا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة وسماها: عَرسان أى باب الجنة فزرعوا وغرسوا الأشجار والجنان من عرسان إلى البحر، فكانت كلها زروعًا وجنانًا وعمارةً، وذكر أيضًا عن ابن سعيد عن البيهقى كان دخول إخوة يوسف وأبويه عليهم السلام عليه بمدينة العريش وهى أول أرض مصر، لأنه خرج إلى تلقيهم حتى نزل المدينة وكان له هناك عرش وهى سرير السلطنة فاجلس أبويه عليه، وكانت تلك المدينة تسمى فى القديم بمدينة العرش لذلك، ثم سمتها العامة مدينة العريش فغلب ذلك عليها(٣).

جدير بالذكر أن مدينة العريش لم تكد تنعم بهذا النمو حتى أضيرت أيما

---

(١) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥، المطبعة الكبرى، بولاق، ١٨٩٣، ص٥٢.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج١٤، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، طبع بولاق، ١٢٧٠هـ، ص ص٥٨٩، ٥٩٠.

ضرر، باكتشاف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح الذي ربما أصابها بانكماش عمراني، كالذي لحق بها أبان الغزوة الصليبية الشرسة، لأسر الطريق الجديد طريق القوافل الذي فقد أهميته وزال دوره في الحركة التجارية.

ولما آلت مصر إلي ممتلكات آل عثمان في عام ١٥١٧، وبعد أن استقر لهم المقام فيها، شرعوا ببناء عدة قلاع في سيناء، أولها قلعة الطور عام ١٥٢٠م، ثم قلعة العريش التي بنيت في عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٠م، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن قلعة العريش كانت قد تهدمت تمامًا مما استدعى بنائها من جديد، كما يدل أيضاً على أحياء وظيفة المدينة الحربية، التي كانت قد خبت خلال الفترة الماضية، كما رمموا قلعة نخل، وقلاع أخرى أقل أهمية مثل قاطية، الطينة، البلاح[١].

ومن قلعة العريش حكم العثمانيون سيناء حكمًا مباشرًا، واتخذوها مستقرًا دائمًا لحكمها، ومما لا ريب فيه أن بناء قلعة المدينة واستقرار الولاة فيها بشكل دائم، ووقوفهم على تفاصيل أحوالها البشرية والجغرافية وإصلاح ما يلزم من مرافقها، قد شجع ذلك كله أبناء سيناء الذين يترددون على المدينة لقضاء حوائجهم، لاستيطانها والاستفادة من الأمن والأمان ومن كل جديد في هذه المجالات مما ترتب عليه نموها العمراني.

من خلال هذا العرض لثغر العريش عند الرحالة والجغرافيين العرب أمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج المهمة للعريش يمكن إجمالها على النحو التالى:

- كانت أول مسالح مصر وأعمالها جهة الشرق.

---

(١) محمد عبد المنعم القرماني، مدخل إلي نهضة سيناء، مؤسسة روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٥.

- أحد أهم ثغور مصر الساحلية شمال سيناء فى العصر الوسيط.

- كانت آهلة بالسكان، غنية بثرواتها الزراعية والحيوانية طوال العصر الوسيط.

- شهدت العريش الوظيفة التجارية إضافة إلى وظيفتها الرئيسة كثغر حربى مهم، كما سيتضح مع تناول وظائف مدينة العريش.

- على الرغم من تعرض العريش لعديد من الهجمات من قبل الفرنج إضافة إلى الصراعات الداخلية، ولكن كان لها من مقومات الموضع ما جعلها تظل قائمة كمركز استقرار بشرى مهم فى حين تحولت الفرما إلى مجرد تل أثرى عام ٥٥٩هـ.

فعلي الرغم من وقوع ثغر الفرما على طريق الدرب السلطانى، وذلك فى أقصى شمال شرق الدلتا وهى بذلك مفتاح مصر الشرقى، وأهم المدن على هذا المدخل الشمالى الشرقى، وإذا كانت صفتها الحربية قديمة فقد ظلت كذلك بعد الفتح الإسلامى العربى لمصر، فكانت من ثغور مصر الساحلية على البحر الرومى (المتوسط)، وصارت بحكم وظيفتها الحربية من جهة وموقعها الهام على الدرب السلطانى من جهة أخرى مجمع الطرق الواصلة بين مصر وفلسطين تتحكم فى الطريق بالنسبة للصادر والوارد عليه[1].

وإلى جانب تحكمها فى الطريق وسيطرتها عليه فهى تقع فى منتصفه، ومعنى ذلك أنها تقع بين المعمور المصرى وبداية حدود مصر الشرقية فكانت فى هذه المنطقة خطًا دفاعيًا هامًا لحماية مصر؛ نظرًا لان ما يسبقها من ثغور على الدرب فى شرقها لا يماثلها فى الحصانة والقوة الدفاعية ولا فى الموقع الهام

(١) المقدسى: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٥.

المتميز بالصلات البرية والبحرية بالمعمور المصرى.

كل ذلك جعل منها ثغرًا بحريًا قادرًا على كشف خط الساحل وحماية الطريقين الساحلى والداخلى اللذين يلتقيان فيها وقد أتاح لها الموقع الساحلى قيام صلات مكانية بحرية مع سواحل الشام وجزر البحر المتوسط مما أفاد فى المجال التجارى وغيره.

وإذا كانت مزايا الموقع الجغرافى السابقة للفرما قد أكسبها الصفة الحربية والتجارية مما ساعد على ازدهارها، إلا أن هذا الموقع هامشى بالنسبة لمعمور الدلتا حيث ترقد المدينة عند أطراف أحد رؤوس أضلاع الدلتا الثلاث.

وعلى الرغم من انتشار الرواسب الطمية من حولها مما يدخلها فى نطاق الدلتا الطبيعية إلى أنها من الناحية البشرية كانت منعزلة عن المعمور بفواصل طبيعية تمثلت فى بحيرة تنيس وما حولها من سياحات الجنوب فضلا عن نطاق رملى حتى أطراف مدينة الصالحية.

وبهذا حُرمت المدينة من الالتحام بالمعمور المصرى فحرمت من الظهير البشرى كما لم تمكنها الظروف الطبوغرافية المحلية من أن يكون لها ظهير يسمح بتركز السكان حول هذا الثغر الحربى المهم، ولهذا كان الموقع الهامشى المتطرف أحد مثالب الموقع وله أثار سيئة على المدينة فى تاريخها القديم والوسيط خاصة.

رابعًا: تطور وظائف ثغر العريش:

مما تقدم نستخلص أن أولى الوظائف التي مارستها مدينة العريش كانت منفى أو سجنًا للخارجين على القانون، ولكنها ما لبثت أن قامت بمزاولة وظائف أخرى هي:

*** - الوظيفة الحربية:**

كان وادي النيل محط أطماع جيرانه لموقعه وثرائه، وقد برز هذا الطبع بشكل سافر في تلك المغامرات من جانب البدو، والحملات العسكرية المنظمة من قبل الدول المجاورة ولاسيما المقيمين إلي الشرق منه، وكان هؤلاء وهؤلاء يسلكون الطريق الساحلي لشمال سيناء لتحقيق مآربهم، وإزاء هذه الأعمال الاستفزازية شيد الفراعنة منذ حقب بعيده قلاعًا على هذه الطريق، لتحرسها من أن يطرقها غاشم ولتزود الجيوش المصرية بما تحتاجه وهي في طريقها للزود عن حياض مصر وتأمين حدودها. ولا شك أن قلعة العريش كانت واحدة من بين عقد القلاع المتناثرة على طول هذا الساحل لقربها الشديد من حدود مصر الدولية، وقد دلت الآثار على وجود قلاع محصنه بهذا الموقع ترجع إلي عهد قديم.

وكانت خصائص الموضع الذي قامت عليه قلعة العريش ومدينتها، تزيد من قيمة هذا الموقع وتطفى عليه أهمية وحيوية، كما جاء سابقًا.

ولقد زاد من فاعلية القلعة ومنعتها، وفره المياه الصالحة للشرب داخل القلعة وجنوب المدينة مما شد أزر المدافع ودعم صموده وجعله المتحكم الوحيد في مصدر المياه، وحرم بذلك المهاجم من عامل مهم لا يستغنى عنه في الحرب والسلم على السواء وإطباق الكثبان الرملية على المدينة والقلعة من الجنوب والغرب مما يشكل خطوط دفاعية ممتازة تجبر المهاجم لأن يسلك مسالك محدده لاقتحام المدينة مما يعسر موقفه ويزيد من حجم خسائره ويسهل مهمة التعامل معه.

ولقد تأرجحت الوظيفة الحربية للمدينة على مدار تاريخها القديم والحديث بين

ارتفاع وانخفاض فحينما تبسط مصر وتمد نفوذها على ما جاورها من بلاد ولاسيما بلاد الشام تنخفض قيمة الوظيفة الحربية للمدينة. وتصبح مهمتها الحفاظ على سيولة تدفق التجارة عبر الطريق الذي تجثم حارسه له، ولكن الأمر يتحول حين يخرج الشام من قبضة مصر ويصير إلي آخرين، فتتحول المدينة إلي برج مهم في الدفاع عن الوادي.

وهكذا ترجع أهمية العريش كثغر حربى إلى كونها أول مدينة مصرية يمكن أن تواجه الجيش القادم تجاه البلاد المصرية، ومن ثم يجب ملاقاته فى العريش وغيرها من الثغور قبل أن يصل هذا الجيش إلى المعمور المصرى فيتمكن منه، ومن هنا شهدت العريش العديد من المعارك الحربية التى جرت على أرضها والتى يمكن سردها على النحو التالى:

مع نهاية الدولة الطولونية (٢٥٤/ ٢٩٢هـ- ٨٦٨/ ٩٠٥م):

حيث كان ببلدة العريش وقعة حربية بين محمد بن على الخليجى أحد قواد بنى طولون سنة ٢٩٢هـ الذى قام بثورة كبيرة بهدف إحياء الدولة الطولونية وعساكر عيسى بن محمد النوشرى والى مصر آنذاك من قبل الخليفة المكتفى العباسى، حيث إنه لما بلغ النوشرى ما كان من أمر محمد بن على الخليجى فجهز عسكرًا إلى العريش فى أسرع وقت من البحر وساروا حتى بلغوا غزة فتقدم إليهم محمد بن على الخليجى بمن معه فلما سمعوا به رجعوا إلى العريش فسار محمد بن على الخليجى بمن معه خلفهم إلى العريش فانهزموا أمامه إلى الفرما ثم ساروا من الفرما إلى العباسية[1].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد مصطفي زيادة وآخرون، ج ٣، دار الكتب المصرية، القاهرة،ص ١٤٨. أيضًا عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ص ١٣١، ١٣٢.

فى عصر الدولة الإخشيدية (٢٩٢/ ٣٥٨هـ/ ٩٠٥/ ٩٦٩م):

وذلك سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، حين أعطى الخليفة الراضى بالله لقب أمير الأمراء لمحمد بن رائق حكمدار فلسطين، فلاح له أن يغزو سوريا وكان عليها الأمير بدر من قبل محمد الإخشيد (والى مصر)، فحاربه فهرب بدر، فنهض محمد الإخشيد لإنجاده وعسكر فى الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت تلك البلد فتدخل بعض الأمراء فتصالحا، وعاد الإخشيد إلى الفسطاط وما بلغها حتى جاءه الخبر أن محمد بن رائق قد نقض الصلح وفى نيته مهاجمة مصر، فأسرع الإخشيد لملاقاته فى موقعة حامية عند العريش انكسر فيها جيش محمد بن رائق وأسر خمسمائة من رجالة وعاد راجعًا إلى دمشق(١).

فى عصر الدولة الفاطمية (٣٥٨/ ٥٦٤هـ- ٩٦٩/ ١١٦٩م):

منذ القرن الخامس الهجرى ومع تدهور عام فى أركان الدولة الفاطمية، كان من الطبيعى أن يشهد ثغر العريش مع غيره من ثغور مصر اضطرابات بسبب الصراعات الداخلية آنذاك، والتى يمكن سرد بعض منها على النحو التالى:-

ما ذكره المقريزى سنة ٤١٥هـ زمن الخليفة الفاطمى الظاهر فقد نهب عبد الله بن إدريس الجعفرى العريش بمعونة بعض أولاد ابن جراح وأحرق وأخذ جميع ما كان فيها(٢).

ما جاء عند المقريزى سنة ٥٥٣هـ من أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد سير عسكرًا إلى العريش لصد الفرنج وقد كان، وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما

---

(١) الكندى: الولاه والقضاه، تحقيق: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٩٠.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد حلمي محمد، ج٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٧٣، ص١٤٣.

بين خيول وأموال[1].

فى عصر الدولة الأيوبية (٥٦٤/ ٦٤٨هـ- ١١٦٩/ ١٢٥٠م):

وفى بداية الحكم الأيوبى ظلت العريش عرضه لأخطار الحملات الصليبية على نحو ما حدث عام ٥٧٧هـ حين ورد الخبر بأن نخل العريش قد قطع أكثره بمعرفة الفرنج وحملوا جذوعه إلى إماراتهم بفلسطين[2].

وهكذا كانت العريش هدفًا سهلاً للخارجين على السلطة، ومن ثم يغيرون عليها من أجل السلب والنهب والتخريب قبل أن تدركهم الجيوش النظامية، خاصة وأن هذه الجماعات المهاجمة كانت تقدم من فلسطين ثم ترتد إليها على وجه السرعة، وكانت محصلة هذه الأحداث تدنى مكانة العريش، ولكن المهم أن العريش كان لها من مقومات الموضع ما جعلها تظل قائمة كمركز استقرار بشرى فى حين تحولت الفرما إلى مجرد تل أثرى عام ٥٥٩هـ.

وأخيرًا يجدر القول بأن ما تحتويه العريش اليوم من بقايا قلعة (صورة ٣،٢،١) فإن ذلك يرجع إلى عهد العثمانيين فى مصر، فقد حرصوا على تأمين مواصلاتهم البرية مع مراكز الخلافة فى أسطنبول، وقد أقام هذه القلعة السلطان سليمان ابن السلطان سليم عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م[3].

جدير بالذكر أن قلعة العريش (شكل٧) والتي تقع على قمة هضبة مرتفعة جنوب غربي العريش كانت يومًا شامخةً تترصد بأعينها ضجيج الغزوات، وقد

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، مرجع سبق ذكره، ج٣، ص٢٣٣.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ص ٢١٠، ٢١١.

(٣) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص١٦٣.

اختير موقعها بشكل يتواءم وحماية طريق الحرب"الدرب السلطاني" والتجارة الشمالي، قد تحولت مع مرور السنيين إلى مجرد شاهد وبقايا أثر هو الوحيد الباقي من عبق التاريخ بمدينة العريش عاصمة شمال سيناء.

وبكل آسى وأسف أصبحت اليوم مقلبًا للقمامة، وأتسأل أين دور السياحة بالمحافظة لحماية هذا الأثر التاريخي المهم من الاندثار؟ ألا يمكن أن تتحول هذه القلعة إلى منطقة جذب سياحي ومركز إشعاع حضاري.

مما سبق نستشف مدى أهمية العريش كثغر حربى مهم على طول الدرب السلطانى أهم طرق مصر الخارجية على الإطلاق فى العصر العربى، حيث إن سقوطها وسيطرة المغيرين عليها وتجاوزها إلى العاصمة يعنى سهولة اجتياز واجتياح غيرها من المدن على طول الدرب السلطانى وصولاً إلى العاصمة.

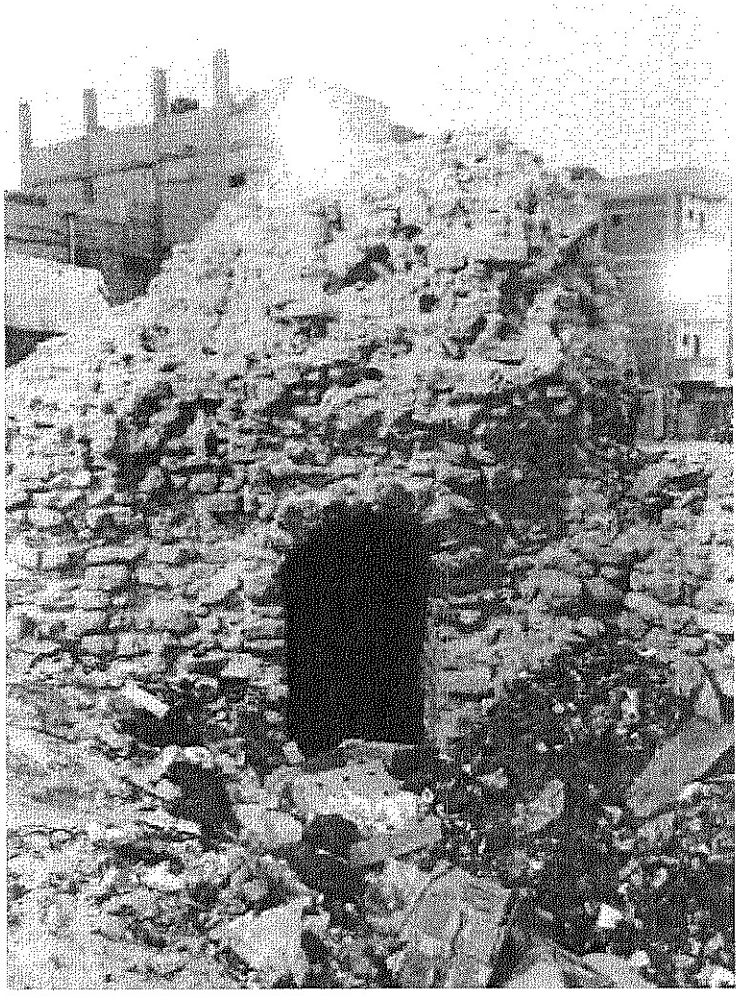

الزيارة الميدانية ٢٠١٤.

صورة (١) بقايا قلعة العريش

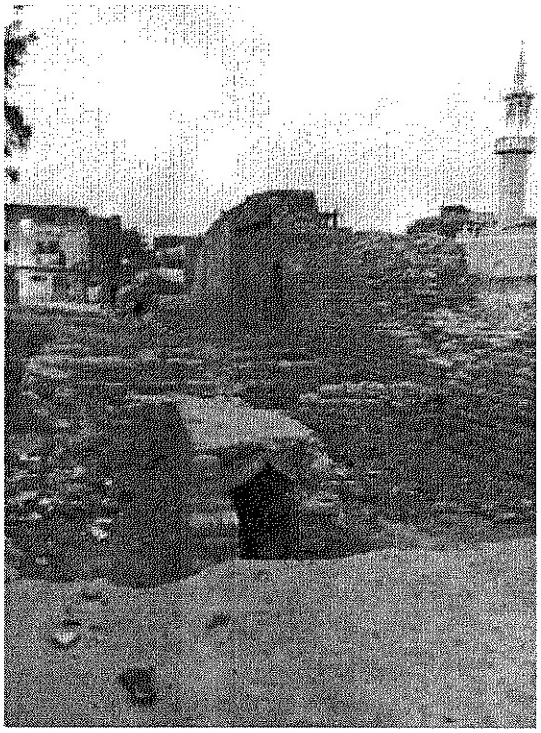

صورة (٢) تابع بقايا قلعة العريش

صورة (٣) تابع بقايا قلعة العريش

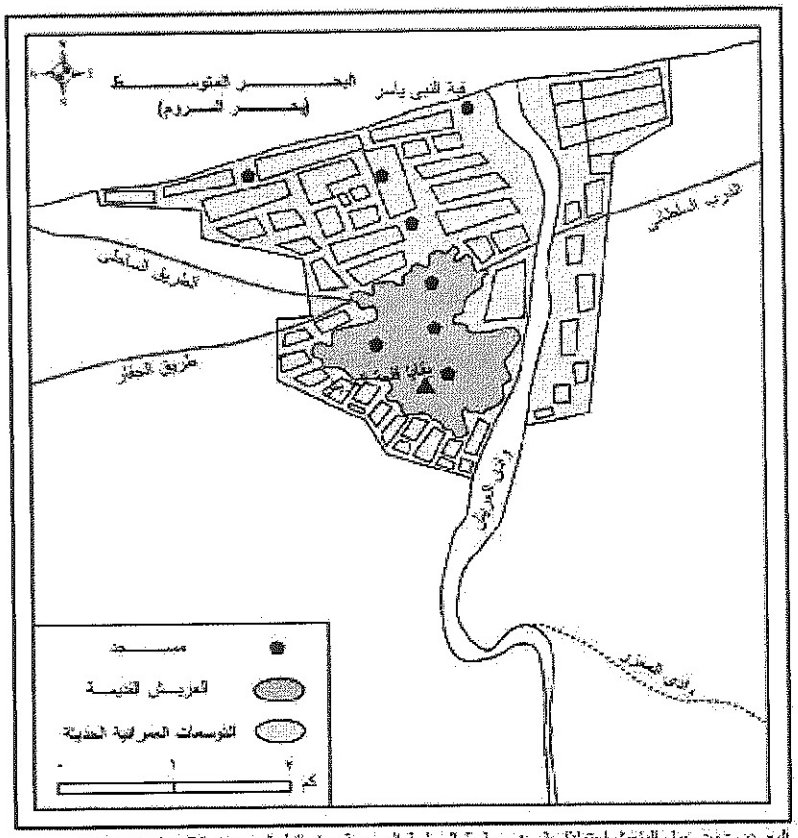

المصدر : من عمل الباحث استنادا على : مصلحة المساحة المصرية ، خرائط ١ : ٢٥٠,٠٠٠ ، ١ : ٥٠,٠٠٠ .

شكل (٧) المعالم التاريخية والأثرية بالعريش .

- تل اليزك:

والآن نعرض لظاهرة جغرافية مهمة تؤكد على قيمة الوظيفة الحربية لثغر العريش تعرف بتل اليزك الذى كان بمثابة مركز استطلاعى متقدم للجند المرابطين عند الشاطئ لحماية مدينة العريش من أن يطرقها طارق، فهو إذن ذو وظيفة حربية مهمة على السهل الساحلى شمالى سيناء.

وتل اليزك أحد صور أشكال التكوينات الرملية الشاطئية شمال سيناء يقع إلى الغرب من مفيض وادى العريش وشمال مدينة العريش ببضع كيلو مترات كما بالشكل (١).

أما بالنسبة لمفهوم اليزك فهو لفظ فارسى الأصل معناه كما جاء عند عماد الأصفهانى مستطلع/ مكتشف/ حارس، وهذا الحرس المتقدم يكون بين جهة العدو القادم برًا أو بحرًا وبين القوات العسكرية القائمة فى الثغور[١].

ونظرًا لأن كل أخطار مصر الخارجية طوال العصر الوسيط كانت تأتى من قبل سواحلها الشمالية، والتى تعرضت منها مصر لأغلب الغزوات سواء برًا أو بحرًا، وذلك لأنها ليست فقط عرضة بصورة مباشرة للبحر بلا عمق أو عازل مهم، ولكن أيضًا لأن مراكز القوى والإمبراطوريات والإطماع التقليدية فى العالم القديم كانت كلها فى الشمال، ولهذا كان من الطبيعى أن تركز طلائع الجند على طول سواحل مصر الشمالية، خاصة خلال شهرى فبراير ومارس من كل عام، وذلك لأنها الفترة الصالحة للملاحة ورسو السفن فى البحر المتوسط، ومن ثم تقع الخطورة على الموانئ والثغور ولهذا يقع الاهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة[٢]. والتى من أهمها ثغر العريش آنذاك وبهذا المفهوم وذاك الوضع يكون تل اليزك بمثابة مركز استطلاعى متقدم للجند المرابطين عند الشاطئ لحماية العريش، وكان له مقومات دفاعية تتناسب ومهامه، فهذا مفيض وادى العريش الذى كان بمثابة خندق شرقى التل، وهذه مدنية العريش ظهير بشرى

(١) العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٥٧، ٤٢٥، ٤٤١، ٥٣٢.

(٢) ابن مماتى: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١، ص ص٢٤٧، ٢٤٨.

يحمى التل، حيث كانت بمثابة الصريخ حين يطرقه طارق، أضف إلى هذا وجود مصدر مائى دائم متمثل فى بئر النبى ياسر التى كانت تسمى بئر اليزك، وقد ظلت حتى أواخر القرن التاسع عشر ١٨٩٨م، فَجُدِدت وَبُنِى لها حوض لسُقى السابلة وماؤها أعذب من آبار العريش[١]. ويرجع سبب ذلك إلى تسرب المياه إليها من مفيض وادى العريش.

جدير بالذكر أن تل اليزك قد احتفظ باسمة الدال على وظيفته الحربية منذ العصر الأيوبى حتى إن عبد الغنى النابلسى أثناء رحلته لمصر عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م ذكره باسم تل اليزك حين أشار أنه فى تلك البلاد مكان مبارك يقال له اليزك[٢].

أما بالنسبة لقبة النبى ياسر القائمة على التل، فهى ليست المقبرة الوحيدة على هذا التل، حيث يذكر عبد العال الشامى أنه لما كانت مثل هذه الأماكن التى يرابط فيها المرابطون فإنها تشهد دفن بعض هؤلاء المجاهدين، أو أن تكون ملاذًا مستحبًا لأولياء الله الصالحين، ومن ثم فليس من المستبعد أن تكون تسمية قبة النبى ياسر يقصد بها ضريح أحد هؤلاء العباد أو مشهد مقام استجابة لاعتقاد بعض الصالحين فيما سبق من الزمان[٣].

ولقد جدد بناء هذه القبة عثمان بك فريد محافظ العريش عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م[٤].

---

(١) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص١٦٥، ١٦٦، ١٨٧، ٢٦٠.
(٢) عبد الغنى النابلسى: مرجع سبق ذكره، ص١٧٢.
(٣) عبد العال الشامى: الدرب السلطانى المدخل الشمال الشرقي لمصر، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص٣٢.
(٤) نعوم شقير: مرجع سبق ذكره، ص١٦٦.

** الوظيفة التجارية:

كانت للعريش وظيفتها التجارية يستدل على ذلك من خلال وصف ياقوت الحموى السابق لها من أن بها سوقًا جامعًا كبيرًا وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجارة، وبها الرمان الذى يحمل إلى كل البلاد(١).

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن فضل الله العمرى بأن بالعريش خانًا كبيرًا حصينًا(٢).

كل ذلك يؤكد على وجود الوظيفة التجارية لها فى العصر الوسيط ولم لا وهى ثغر ساحلى مهم على سيف البحر المتوسط ومحطة مهمة على طول الدرب السلطانى أشهر طرق مصر الخارجية آنذاك، لهذا كان من الطبيعى أن تعرف مدينة العريش الوظيفة التجارية حيث أن الصلة التجارية بين مصر وبلاد الشام بخاصة وغربي آسيا عامه قديمة قدم التاريخ، حيث كانت قوافل الإتجار مع تلك الجهات تسلك طريق البحر وطريق البر عبر سيناء، ولاسيما الطريق الساحلي الشمالي الذي تتوافر في بعض نقاطه المياه الجوفية الضرورية جدا لمثل تلك الرحلات الطويلة عبر تلك الصحراء الجرداء، فضلا عن أنه أقرب الطرق الموصلة بين مصر وجيرانها الشوام والذين يلونهم من الشرق.

وكانت مدينة العريش أحدى المحطات المهمة على هذه الطريق تحط الرحال عندها للتزود بالمياه والعشب سيما والماء يقل وتشتد ملوحته إلي الغرب منها(٣)، وطلبا للراحة من عناء الرحلة وبيع بعض ما يحمله التجار لأهالي البلدة الذين يزيدون في حجمهم عن سكان أي منطقة أخرى ضمن حدود شبه الجزيرة، ويقوم

(١) ياقوت الحموى: مرجع سبق ذكره، باب العين والراء وما يليها.
(٢) ابن فضل الله العمري: مرجع سبق ذكره، ص١٩١.
(٣) عباس مصطفى عمار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

أهل المدينة بدورهم ببيع ما اقتنوه لسكان شبه الجزيرة الآخرين، أي أن المدينة مارست دور تجميع البضائع وتوزيعها، فضلا عن بيع منتجاتها الزراعية والحيوانية لهؤلاء التجار، وأهم ما كانت تحمل القوافل من بلاد الشام الجواري والخيل والخشب والآلات الموسيقية والزيوت والفواكه[١]، والمصنوعات الجلدية والنبيذ والمصنوعات الصوفية[٢]، وترسل مصر في مقابل ذلك عبر سيناء إلي البلاد التي تقع إلي الشرق منها الحبوب والمنسوجات الدقيقة والأدوات الذهبية والأدوات الزجاجية والخزفية[٣].

ومن القرن الثاني ق.م إلي القرن الثاني الميلادي وعلى يد الأنباط[٤]، شهدت المحطات القابعة على هذا الطريق نشاطًا تجاريًا ملحوظًا، استمر هذا النشاط في العصر الروماني، وكان من نتيجة هذا النشاط ازدهار العريش ورفح[٥]، وربما ازدادت أهمية هذا الطريق بتعرض الطريق الشمالي "اللاذقية إنطاكية، حلب، قنسرين، الفرات، "أو طريق" دمشق، تدمر، الفرات "للتدهور. وهكذا عاد يزاول مهمته التجارية بنجاح خلال العصر الإسلامي، إلي أن برز إلي الوجود الخطر

(١) عبد الرحمن زكي، سيناء أرض المعارك، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٧، ص ٦٢.

(٢) عباس مصطفى عمار، مرجع سبق ذكره، ص١٧.

(٣) عبد الرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣.

(٥) الأنباط (٣١٢ ق.م – ١٠٦ م) هي مملكة عربية قديمة قامت في شبه الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وشملت أجزاء من المملكة العربية السعودية والأردن. عاصمتهم الأولى مدينة الحجر في شمال غرب السعودية ثم انتقلوا لاحقاً إلى البتراء في الأردن وكانت محطة إستراتيجية واقعة على طريق البخور إذ أنها تقع على مفترق طريق القوافل القادمة من اليمن وتربطها بالشام ومصر والبحر الأبيض المتوسط.

(٥) محمد السيد غلاب، شمال سيناء مقدمة في الجغرافيا التاريخية مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد التاسع، ديسمبر ١٩٥٥، ص ٣٢.

الصليبي الذي وجه ضربه قاصمة إلي القوافل العابرة لشمال سيناء وفرض عليها الاتجاه إلى طريق الصعيد- البحر الأحمر[١] وفي خضم كفاح مصر والعالم الإسلامي ضد الصليبين، أجتاح المغول العالم الإسلامي وشارفوا الأراضي المصرية وساهموا في إيقاف دم الحياة أيضا في مدينة العريش وسائر مدن مصر والشام، الذي عاد يتدفق ثانية وبحرارة لقرون عدة عقب دحر العدوان وبسط المماليك نفوذهم على مصر وبلاد الشام، ومن جملة الأسباب التي أنعشت التجارة في العريش خاصة وسيناء عامه، الهجرات العربية من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية إلي مصر، والتي كانت تجد ترحيبًا من الحكام وتشجيعًا عليها[٢]، ولكن مدادها ما لبث أن جف بعد أن اشتد الحكام المماليك في معاملة هؤلاء المهاجرين، حتى خرج بعض من جاءها من هؤلاء أما عائدًا إلى موطنه الأصلي أو مستوطنًا سيناء.

ولم تكد أحداث الحروب الصليبية وآثارها المدمرة على تجارة المنطقة تمحي من الذاكرة، حتى أفاقت مصر المماليك على كشف رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر، والذي احتكر تجارة الغرب والشرق على السواء، فأصاب كشفه دور مصر التجاري كوسيط في الصميم، بحيث غدت تمارس دورها التجاري خلال الحكم العثماني وحتى الاحتلال الفرنسي على نطاق محلي.

* * *

(١) جمال حمدان،١٩٨١، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠٩.
(٢) عباس مصطفى عمار، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.

الخـــاتـــمة

إن الأخطار التي تعرضت لها مصر على مر العصور من الشرق أو الغرب أو الجنوب قليلة جدًا، وهذا ينعكس أيضًا على حدودنا السياسية الحالية.

وعلى النقيض من هذا تمامًا كانت حدودنا الشمالية في العصر الوسيط ففيهـــا تركز كل الخطر، ومنها تعرضت مصر لأغلب الغزوات سواء بـــرًا أو بحـــرًا وذلك؛ لأنها ليست فقط معرضة بصورة مباشرة للبحر بلا عمق أو عازل مهـــم، ولكن أيضًا لأن مراكز القوى والإمبراطوريات والأطماع التقليدية فـــى العـــالم القديم كانت فى الشمال، لكل ما سبق كانت ثغور مصر الساحلية شمال ســـيناء، وعلى رأسها ثغر العريش من الأهمية بمكان، وذلك لضمان الحمايـــة البحريـــة لحدود مصر الشمالية.

كما تحقق أيضًا من هذه الدراسة أن مدينة العريش كانت إحـــدى المحطـــات المهمة على الطريق الساحلي لشمال سيناء، لهذا كان من الطبيعـــي أن تعـــرف مدينة العريش الوظيفة التجارية خاصة أن الصلة التجارية بين مصر وبلاد الشام خاصة وغرب أسيا عامة قديمة قدم التاريخ.

كما ثبت لي أن الغارات الخارجية كانت ترتبط ارتباطًـــا واضـــحًا بفتـــرات الضعف والتفكك التي كانت تجتاح مصر، فكانت تكثر وتشتد فى تلك الفترات في حين كانت تقل أو تنعدم في الفترة التي تكون فيها مصر قوية ومتحدة.

كذلك اتضح من هذه الدراسة، مدى اهتمام الدولة الإسلامية بتحـــصين ثغـــر العريش، وحرص ولاة مصر وحكامها على الاحتفاظ بالتحصينات القائمة بـــه، كما قاموا ببناء تحصينات جديدة (قلاع، حصون، وأبراج.....إلخ) تحتوى على ثكنات للجند ومخازن للأسلحة وأماكن مراقبة قدوم العدو.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر:

١- أبي عبد الله محمد الواتدي، كتاب فتوح مصر والإسكندرية، طبع بمدينة ليدن، ١٨٣٥.

٢- ابن الأعرابى (أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى١٥٠/٢٣١هـ): كتاب البئر، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٧٠.

٣- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي) تحفه النظار في غرائب وعجائب الأمصار، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤.

٤- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرون، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٦/ ١٩٧٥.

٥- ابن حوقل (أبو قاسم محمد بن حوقل النصيبى ت٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض ط٢، القسم الأول، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧.

٦- ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله ٢٠٥/٣٠٠هـ): المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩.

٧- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى٧٥٠/٨٠٩هـ): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٢، المطبعة الكبرى، بولاق، ١٨٩٣.

٨- ابن سعيد المغربى (أبي الحسن علي بن موسي بن سعيد المغربي٦١٠/٦٨٥هـ): كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل المغربى، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠.

٩- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري):

التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ.

١٠- ابن مماتى (الاسعد أبي المكارم بن مماتي ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م): قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١.

١١- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل ٦٧٢/٧٣٢هـ): تقويم البلدان، طبع باريس، ١٨٤٠.

١٢- الزبيدى (محيى الدين أبو الفيض السيد محمد الزبيدى الحنفى١١٤٥/١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: إبراهيم الترزى، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٢.

١٣- العماد الأصفهانى (أبوعبدالله محمد بن صفى الدين ٥١٩/٥٩٧هـ): الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

١٤- القلقشندى (شهاب الدين أبوا لعباس أحمد بن علي ٧٥٦/٨٢١هـ): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج١١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٩،ج١٤، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٧.

١٥- _____: قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبيارى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٣٠.

١٦- الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ت٣٥٠هـ): الولاة والقضاة، تحقيق: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

١٧- المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد ٣٣٥/٣٩٠هـ): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن، ١٩٠٦.

١٨- المقريزى (تقى الدين أحمد بن علي ٧٦٦/٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار

بذكر الخطط والآثار، ج١، طبع بولاق، ١٢٧٠هـ.

١٩- _____: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، صححه: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٣٤.

٢٠- _____: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمى محمد، ج٣، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٧٣.

٢١- اليعقوبى (أبو عباس أحمد بن يعقوب ت٢٩٢هـ/٩٠٥م): البلدان، ط ٣، النجف، ١٩٥٧.

٢٢- عبد الغنى النابلسى (عبدالغنى بن اسماعيل١٠٥٠/١١٤٣هـ): الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد: أحمد عبد المجيد هريدى، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

٢٣- ديودور الصقلي في مصر، نقله من اليونانية: وهيب كامل، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

٢٤- ياقوت الحموى (شهاب الدين بن عبدالله ياقوت ٥٧٥/٦٢٦هـ): المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، نشر فردينا وستنفليد، ١٨٤٦.

٢٥- _____: معجم البلدان، طبعة ليبزج، ١٨٦٦.

ثانيا- المراجع:

أ- الكتب:

١- أبو الحجاج حافظ: سيناء، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.

٢- ج، بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦.

٣- جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٢.

٤- _____: شخصية مصر – دراسة فى عبقرية المكان – ج١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠.

٦- عباس عمار: المدخل الشرقى لمصر، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى، القاهرة،١٩٤٦.

٧ – عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦.

٨- عبد الرحمن زكي، سيناء أرض المعارك، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٧.

٩- عبدالعال عبدالمنعم الشامي: الدرب السلطانى "المدخل الشمالى الشرقى لمصر" كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

١٠- فوزية محمود صادق: إمكانات التنمية الزراعية في سيناء، ندوة دور الجغرافيا في تنمية سيناء، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨١.

١١- محمد السيد غلاب، شمال سيناء مقدمة في الجغرافيا التاريخية مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد التاسع، ديسمبر ١٩٥٥.

١٢- محمد حجازى محمد: العمران والمراكز العمرانية فى محافظة شمال سيناء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦.

١٣- محمد صفى الدين أبو العز: شبه جزيرة سيناء والصراع العربي الإسرائيلي، الندوة الدولية لحرب اكتوبر ١٩٧٣، المجلد الرابع، القطاع الحضاري، إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة،١٩٧٦.

١٤- _____: مورفولوجية الأراضي المصرية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٩.

١٥- محمد عبد المنعم القرماني، مدخل إلي نهضة سيناء، مؤسسة روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٥.

١٦- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٣، ج١، القاهرة، د/ت.

١٧- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٥.

١٨- نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩١٦.

١٩- نظير حسان سعداوى: نظام البريد فى الدولة الإسلامية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٣.

ب- الدوريات:

١- إسماعيل محمود الرملى: تخطيط مصادر المياه لشبه جزيرة سيناء، قسم بحوث مصادر المياه، معهد الصحراء، القاهرة، د/ت.

٢- السيد السيد الحسينى: موارد المياه فى شبه جزيرة سيناء، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، عدد أبريل ١٩٨٧.

٣- الشاذلى محمد الشاذلى وآخرون: جيولوجية شبه جزيرة سيناء، أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، مركز الاستشعار من بعد، القاهرة، د/ت.

٤-كمال فريد سعد: تقرير مبدئي عن هيدرولوجية المياه الجوفية بوادي العريش، وحدة البحوث الهيدرولوجية، معهد الصحراء، وزارة الزراعة، القاهرة، ١٩٦٢.

ج- الرسائل العلمية:

١- آمال العمري: المنشآت التجارية في القاهرة في زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥.

٢- عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن الدلتا في العصر العربي، رسالة دكتوراه، غير منشورة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧.

٣- منى الكيالى: منطقة السهل الساحلي شمال شبه جزيرة سيناء، دراسة جيمورفولوجيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٤.

ثالثا- الخرائط:

١- مصلحة المساحة المصرية: أطلس مصر الطبوغرافى مقياس ١:٢٥,٠٠٠.

٢- مصلحة المساحة المصرية أطلس مصر الطبوغرافى مقياس ١:٥٠,٠٠٠.

٣- مصلحة المساحة المصرية أطلس مصر الطبوغرافى مقياس١:١٠٠,٠٠٠.

* * *